

نشأة اللغة العربية ومصادرها

والقاربة بين اللغات السامية واضحة بينة وهي اوضح وامتن واوثق من الروابط التي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغات « الهندوأوربية » او الهند جرمانية على حد تعبير بعض العلماء .

وليس الاختلاف بين اللغات السامية القديمة يزيد على الاختلاف الكائن بين اللغات الجرمانية ولقد ادرك مستشرقوا القرن السابع عشر من امثال هوتنكر Hottinger (1620 - 1667) وبخارت

Bochart والبرت سولتنس Albert Schultens (1686 - 1750 م) ولودلف Ludolf وكاسل Edmcaster (1606 - 1685) بسهولة الوشائج

التي تربط بروابط متينة ما بين تلك اللغات وأشاروا اليها ونوها بصلة القربى التي تجمع شملها ، بل لقد سبقهم الى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين هداهم ذكاؤهم وعلمهم الى اكتشاف تلك الوشائج والى التنويه بها فقد تحدث عالم يهودي اسمه يهودا بن قريش lehuda ben Koraish وهو ممن عاشوا في اوائل القرن العاشر تحدث عن القاربة التي تجمع بين اللغات السامية وعن الخصائص اللغوية المشتركة بين تلك الالسن . كما أبدى هذا العالم اليهودي ملاحظات قيمة عن الاسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات (2) .

ولقدما علماء السامية آراء بنيت على اعتبارات دينية ونفسية في قدم لغات ابناء سام فتمصبوا لفهم وحلمهم تمصبهم هذا وتقديسهم للفهم على تفضيلهم لفهم هذه على سائر لغات ابناء آدم بل لم يقبل بعضهم ذلك ايضا فوجدوه قليلا لا يليق بجلال لغته فجعل لغته لغة آدم في الجنة ولغة البشر بعد الموت ، ولغة السماء ، وهكذا صارت العبرانية سيدة اللغات وارقاها ولغة الوحي ولغة آدم في كتب الاحبار ، وهكذا صارت

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي التي يقال لها اللغة العربية الفصحى ، وكذلك سائر لهجات العرب هي فروع من مجموعة لغات ، عرفت عند المستشرقين باللغات السامية ، وقد اولع بعض المستشرقين بدراسة هذه اللغات ، فالفوا فيها كتباً وابحاثاً وانشأوا مجلات عدة تفرغت لها ، وما زالوا يسمعون في توسيعها وتنظيمها وتبويبها ، وقد عرفت دراساتهم هذه عندهم بالساميات Semitistik وهي تتناول بالدرس كل اللغات التي يحشرها علماء الساميات في مجموعة اللغات السامية تتناولها بغض النظر عن وجود اللغة أو عدم وجودها في هذا العصر . فالبحت علم والعلوم تبحث عن المعرفة دون تقيد بزمان أو بمكان وينفق علماء الساميات مجهوداً كبيراً في المقارنة بين اللغات السامية وفي معرفة مميزات كل لغة وما بينها وما بين اللغات الأخرى من فروق أو تطابق أو تشابه .

وترجع تسمية السامية الى عالم الماني اسمه شلوتسر Schlotzer فهو اول من استعمل السامية في بحوثه في تاريخ الروم القديم ، ويمرود فضل ايجاده الى شجرة انساب الامم الواردة في التوراة والتي ترجع انساب البشر الى ابناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافت « سفر التكوين . الاصحاح العاشر »

فاطلق العالم شلوتسر لفظ السامية على جملة شعوب رجعت التوراة نسبها الى سام بن نوح وشاعت التسمية منذ ذلك الحين وخاصة باستعمال المستشرق الالماني ايسن هورن Eichhorn وادخاله اياها في مؤلفاته وبحوثه واستعملها غيره من العلماء الالمان والانجليز والفرنسيين حتى صارت مصطلح علم عندهم ذا مدلول معين مفهوم ثم وجد هذا المصطلح سبيله الى الامم المنتشرة في آسيا وافريقيا (1) .

لغة بني آرم عند علماء بني آرم والمتعصبين لها : لفسة آدم ، وأقدم اللغات على الإطلاق ، وسرت هذه النظرية الى غيرهم من الناس ، ونظرة مثل هذا لا تقبل بالطبع وبأي حال من الأحوال (3) .

وللمستشرقين آراء في اقرب اللغات السامية الى الاصل . فذهب بعضهم الى ان العبرانية هي اكثر تلك اللغات شبيها بالسامية الاولى - وهي لذلك اقرب بنات سام اليها .

وذهب آخرون الى تقديم لغة الآراميين على غيرها، جاعليها البنت الاولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الاصيلة اكثر من اجتماعها في اى لغة اخرى ، ولهذا استحقت في رأيهم هذا التكريم والتقديم ، وذهب آخرون الى تقديم العربية على سائر اللغات الاخرى لمحافظة اكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الاولى وعدم تنصلها منها وتركها لها كالذي نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ومن كثرة تعدد قواعدها التي زالت بقواعد بقية اللغات .

غير ان هذه الامتيازات والحصانات التي تتمتع بها هذه اللغة يقابلها من جهة اخرى مميزات في العربية لا نجدها في اللهجات السامية الباقية ، مما يبعث على الظن انها طرات عليها فيما بعد وان اللغة العربية قد مرت بأطوار .

والتطور هذا معناه ابتعاد هذه اللغة عن الاصل ثم اننا نجد في العبرانية وفي لغة بني آرم قطعاً من الكلام اقدم عهداً من اللغة العربية ، غير اننا لا نستطيع مع ذلك ان ننكر ان معرفتنا واحاطتنا باللغة العربية لا تكاد تدانيها معرفتنا واحاطتنا بقية اللغات السامية . ومن هنا صارت اللغة العربية بلهجاتها المتعددة حقلاً مهما لاجراء التجارب والاختبارات في ميدان مقارنات اللغة السامية ودراساتها . وقد ذهب المستشرق « نولدكه » الى ان من الضروري في دراسة مقارنات اللغات السامية البدء باللغة العربية وذلك بان نأخذ في تسجيل خصائصها ومميزاتها وقواعدها وكيفية النطق بها وما الى ذلك (4) .

ويقسم علماء الساميات اللغات السامية الى قسمين : لغات سامية شمالية ولغات سامية جنوبية . ويقسم العلماء اللغات السامية الشمالية الى مجموعتين : مجموعة شرقية ومجموعة غربية ويقصدون بالمجموعة الشرقية : اللغات السامية المركزة في العراق

ويقصدون بالمجموعة الغربية اللغات السامية المركزة في بلاد الشام (5) .

واللغات السامية الشرقية او الشمالية الشرقية وتسمى ايضا باللغة الاكدية نسبة الى بلاد اكّد في وسط العراق من حدود 2500 ق. م الى القرون الاخيرة ق. م .

أ - اللغة البابلية : القديمة والوسيطه والحديثة 2000 ق. م الى القرون الاخيرة ق. م .

ب - اللغة الاشورية : القديمة والوسيطه والحديثة 2000 ق. م الى 600 ق. م .

واللغات السامية الغربية او الشمالية الغربية منذ منتصف الالف الثاني ق. م . وهي : السريانية والارامية والبابلية والمندائية - لغة الصائبة - والكنعانية والاخلامية والفينيقية والبونية والنبطية والمواوية والامورية والاوغاريتية ، ومن لهجات اخرى محلية .

اما المجموعة الجنوبية : فتتألف من اللهجات العربية بأنواعها ومن بعض اللغات الافريقية التي يطلق عليها العلماء اسم اللغة الحبشية او المجموعة الحبشية . ويراد باللهجات العربية عربية القرآن والصفوية والنمودية والحيانية وهي لهجات عربية شمالية وردت بها نصوص جاهلية .

ثم اللهجات العربية الجنوبية التي عثر على نصوص مدونة بها يرجع تاريخ عدد كبير منها الى ما قبل الميلاد وهي : المعينية والسبئية والقتبانبة والاوزانية والحضرية والحميرية (6) .

ولقد توصل الباحثون وعلماء مقارنة اللغات الى خصائص اللغات السامية التي تميزت بها وهي :

1 - اعتماد مجموعة اللغات السامية على الحروف الصامتة - Konsonant - اكثر من اعتمادها على الاصوات - Vokale - فنرى ان اغلب كلماتها تتألف من اجتماع ثلاثة احرف صامتة . اما الاصوات فلا نجد لها حروفا تمثلها في اللغات السامية وهي بذلك على عكس اللغات الآرية التي اهتمت بالاصوات فدونتها مع الحروف الصامتة وقد اضطرت اللغات السامية نتيجة لذلك الى الاستزادة من الحروف فزادت في عدادها عن العدد المألوف في اللغات الآرية وأوجدت لها حروفا للتفخيم والتضخيم والترقيق وإبراز الاسنان والضغط على الحلق .

2 - ويتولد في اللغات السامية من تغيير حركات الاحرف الثلاثة الصامتة وتبديلها معان جديدة ولهذا كان من اهم واجبات الاصوات السامية ، تغيير حركات الحروف لتولد معان جديدة فالاحرف الثلاثة الصامتة اذن هي : التي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ولكن مفاهيم هذه الاصول الثلاثة لا تبقى على حالها ، متى تغيرت حركات هذه الحروف .

3 - ومن الممكن احداث معان جديدة في اللغات السامية وذلك باضافة زوائد تتألف من حرف او اكثر الى الاصول الثلاثة فيتبدل بذلك معنى الاصل .

4 - وليس في اللغات السامية ادغام للكلمات اى وصل كلمة بأخرى لتتكون من كلمتين كلمة واحدة يكون لها معنى مركب ، من معنى الكلمتين المستقلتين كما في اللغات الآرية ، واما ما نراه من عد كلمتين مضافتين كلمة واحدة تؤدي معنى واحدا فان هذا النوع من التركيب بين الكلمتين شيء جديد في اللغات السامية لم يكن معروفا عند اجدادهم القدماء .

5 - وهذا هو سبب ظهور الاعراب في اللغة العربية . ويذهب العلماء الى ان الاعراب كان موجودا في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من اكثر تلك اللغات . ونرى له اثرا يدل عليه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية وفي السريانية البابلية في ضمير التبعية فان هاتين الحالتين تدلان على وجود الاعراب في اصولها القديمة .

6 - ويرى العلماء ان الفعل قد تطور في اللغات السامية تطورا خطيرا استغرق قرونا طويلة وان ما نعرفه من تقسيم الافعال الى ماض ومضارع وامر لم يكن معروفا على هذا النحو عند قدماء الساميين (7) .

اذن مما سبق بيانه وضح لنا ان اللغة العربية من اللغات السامية - الآرية والكنعانية والكلدانية والسريانية والاشورية والعبرانية وغيرها - التي نشأت فيما يسمى الآن منطقة الشرق الاوسط .

وقد ظلت الآراء مضطربة ومختلفة في الاصل المشترك للغات السامية والعلم على اى حال لم يعرف الكلمة الاخيرة . ودائما يزيدنا العلم معرفة وقربا .

ومما هو جدير بالذكر ان اللغة العربية آخر لغة انفصلت عن اللغة الام « السامية » الامر الذي مكنها ان تأخذ ما في السامية من مزايا وتتجنب الى حد بعيد

كثيرا من مزالق مما لم يحصل للسريانية والعبرية اللتين سبقتا اللغة العربية في الانفصال .

وقد استفادت اللغة العربية من تطور السريانية والعبرانية وما اعترهما من تحوير وتجديد فجاءت بدايتها لا كبدابة هاتين اللغتين بمعنى ان بداية العربية جاءت اقرب الى النضج والاكتمال من شقيقتها فكانت بحق بداية جديدة بأن تقود الى نتيجة هي اكر نضجا واستقرارا وسعة .

والمراكز التي تبلورت فيها اللغة العربية هي : اليمن والحجاز ، اما في اليمن فكانت العربية اكثر اتصالا بالاكديّة والحبشية من اي لغة اخرى ، على ان الهجرات الجنوبية الى الشمال والغرب جعلت عربية اليمن تؤثر الى حد بعيد في هذه المناطق ، واما في الحجاز فقد كان هناك تقارب بين العربية والعبرانية وهكذا فان هجرات القحطانيين واحتكاكهم بالعدنانيين ساعدت على تركيز لغة مشتركة .

ومما لا يسوغ انكاره ان هجرات اليمنيين الى الشام وعدم وجود حكومة عربية ورغبة العرب بوجه عام في الحفاظ على المقومات القبلية لم يكن من شأنه الا ان يوسع دائرة اللغة العربية بما شملته من تعدد المصطلحات للمعنى الواحد ، اذ كان لكثير من القبائل لهجات خاصة وبدون ان يكون التفاهم مع ذلك صعبا بينها ، واذا كان من الصعب الآن ان نعرف متى نشأت العربية الا انه من المعلوم انه قد مر اكثر من قرن قبل ظهور الاسلام وقبل ان تصل اللغة العربية الى درجة الاتقان .

ولم يقتصر العرب على شبه الجزيرة وحدها كموطن لسكانهم ومعيشتهم بل هاجر كثير منهم الى البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية قبل الاسلام بقرون .

ولما كانت هذه البلاد المجاورة نفسها موطننا لاناس بينهم وبين العرب صلة شديدة القوة كالانباط والاشوريين والكلدانيين فقد سهل على المهاجرين من شبه الجزيرة الاستقرار بهذه البلاد وكونوا في ظل الحكم الروماني والفارسي بعض الممالك التي اشتهر منها مملكة الحيرة في القرن الخامس قبل الميلاد ومملكة غسان في القرن السادس قبل الميلاد .

فلم يكن العرب منكمشين على انفسهم بل كانت لهم علاقات وطيدة بمدينة الفرس والروم وهذا ينطبق ايضا على سكان الحجاز وعرب الشام والعراق .

ولقد كان لعرب الحجاز تجارة واسعة مع الفرس والرومان وبعبارة أدق مع العراق والشام ، وكان يحتكر التجارة في الحجاز قريش لان قريشا كانت تقطن مكة وهي تعتبر منذ زمن سحيق العاصمة الروحية للعرب .

والتجار يحتاجون الى تعلم لغة البلاد التي لهم بها علاقة تجارية ، ومن ثم كان لا بد ان تدخل الفاظ كثيرة الى اللغة العربية من الفارسية والرومانية وهذه الالفاظ حضارية .

ولغة العرب ظلت ترتبط في الجاهلية الى حد ما بالمحسوسات التي يقع عليها بصر العربي ، ويوضح ذلك الشعر العربي العريق وتجد ذلك ايضا في التعليقات الشعر ولكن الذي يثير انتباه الباحث هو ان كل ما يرتبط بظواهر الطبيعة في حدود شبه الجزيرة العربية يمثل ثروة لغوية لا تقدر .

واذا كانت قريش زعيمة قبائل العرب طالما كانت تتولى امور الكعبة وتسيطر على تجارة الحجاز فان لهجاتها استطاعت في النهاية ان تصهر كل اللهجات العربية في بوتقتها لتخلق منها لغة مشتركة (8) . قال جماعة من الباحثين ان قريشا افصح العرب وبلسانها نزل القرآن الكريم وذلك لانها كانت تختار افضل لغات العرب وهذا الرأي منسوب الى قتادة المتوفى 117 هـ .

وللفراء المتوفى سنة 207 هـ رأى يشبهه قال : كانت العرب تحضر المواسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية وقريش تسمع لغات العرب فخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبج الالفاظ (9) .

وقال احمد بن فارس المتوفى سنة 395 هـ نقلا عن اسماعيل بن ابي عبيدة ، اجمع علماؤنا بكلام الرواة لاشعارهم والعلماء بلغاتهم وايامهم ومجالسهم ان قريشا افصح العرب السنة واصفاهم لغة وذلك ان الله جل ثناؤه اختارهم من بين جميع العرب واختار منهم نبي الرحمة محمدا فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولائه ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون الى مكة للحج ، يتحاكمون الى قريش في امورهم وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة لسانها اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلاتهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب (10) .

وجاء في مقدمة ابن خلدون : كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد المعجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني اسد وبني تميم واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واباد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم وعلى نسبة من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند اهل الصناعة العربية (11) .

وقد توسع العلماء المتحدثون في اثر ما كان لمكاز في تثقيف قريش وفي تاثر من كان يحضر فيه من الشعراء والادباء بلغة قريش ومن هؤلاء سليمان البستاني والدكتور طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعدد كبير من المستشرقين فلهجة قريش على راي هذا الفريق من العلماء هي افصح اللغات (12) .

وهناك روايات تصف لهجات اخرى بالفصاحة ، قال ابو عمر بن العلاء : افصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم (13) .

ووصفت بالفصاحة هذيل وثقيف وجرحم ونصر قعين وجاء في اللسان لابن منظور ان بعض العلماء سئل اي العرب افصح فقال : نصر قعين .

ووصفت بالفصاحة قيس وتمر واسد والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن وهم خمس قبائل منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف (14) .

وقال ابو عبيدة : واحسب افصح هؤلاء بنسي سعد بن بكر وذلك لقول الرسول « انا افصح العرب بيد اني من قريش واني نشأت في بني سعد بن بكر وكان مسترضعا فيهم وهم الذين يقول فيهم عمرو بن العلاء : افصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم (15) .

وقد عدت هوازن وتمر واسد من افصح القبائل في الاسلام ولذلك رحل اليها علماء اللغة للاخذ منها مثل الخليل والكسائي والازهري وامثالهم من العلماء .

جاء في كتاب المزهري : ان ابا نصر الفارابي في اول كتابه المسمى « بالالفاظ والحروف » قال : كانت قريش اجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق واحسنها مسموعا وابينها ابانة عما في النفس والذين نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعندهم اخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم :

قيس وتميم واسد فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم (16) .

قال الدكتور جواد علي عضو المجمع العلمي العراقي: والقاتلون بأن العربية الفصحى هي لسان قريش متأثرون بكون الرسول من قريش وبأن القرآن الكريم نزل بين قريش فهو اذن بلغة قريش وبما أورده علماء اللغة من انتقاء قريش لادق الالفاظ واعذبها وكقصص سوق عكاظ ، اما ان الرسول من قريش ، فهذا امر مفروغ منه واما ان القرآن الكريم بلسان قريش فمسألة فيها نظر وقضية تحتاج الى بحث .

فلو كان القرآن بلسان قريش لم سأل رجال منهم في تفسير كلمات من كلام الله ؟ ولم لجأ المفسرون الى الاستشهاد بشعر غير قرشي وبلغات قبائل أخرى لتفسير كلمة من كلام الله ؟ ولم ندر الشعر في قريش ؟ وقد ورد ان قريشا كانت اقل العرب شعرا في الجاهلية فاضطرها ذلك الى ان تكون اكثر العرب انتحالا للشعر في الاسلام وورد أيضا ان العرب كانت تقر بالتقدم لقريش في كل شيء الا في الشعر فانها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن ابي ربيعة فأقرت له الشعراء بالشعر ايضا ولم تنازعها .

ولم استشهد العلماء في اللغة بآيات من الشعر وبكلام الاعراب بدلا من الاستشهاد بلغة قريش ثم من يثبت مقالة من قال ان قريشا كانت تتخير الكلام فتنتقي منه اعذبه واصفاه وليس لديهم دليل جاهلي مكتوب ولا اثر عتيق يمكن الاعتماد عليه ؟ ثم ما قولنا في حديث طال بحث العلماء فيه وهو « انزل القرآن على سبعة احرف » وقد قيل ان خمسة منها لعجز هوزان واثنين منها لقريش وخزاعة . وهو حديث في امره نظر .

على كل حال ينسب الى عبد الله بن عباس وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله . وذلك ان الذي روى عنه - ان خمسة منها من لسان العجز من هوزان - الكلبي عن ابي صالح وان الذي روى عنه - ان اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة - قتادة ، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه « كما في تفسير الطبري ج 1 ص 23 » والعجز من هوزان: سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف .

وقيل : ان القرآن الكريم جاء بلسان قريش ولسان خزاعة لان الدار واحدة وقد اجمل الطبري في تفسيره ج 1 ص 25 رايه في لغة القرآن بقوله : « ان القرآن كله عربي وانه نزل بالسن بعض العرب دون السن جميعها وان قراءة المسلمين اليوم ومصافحهم التي بين اظهورهم ببعض الالسن التي نزل بها القرآن دون جميعها .

وذهب ابو عبيدة المتوفى سنة 223 هـ الى ان في القرآن لهجات : لهجة قريش ولهجة هذيل ولهجة هوزان ولهجة يمن ولبعضها نصيب كبير فيه « كما في الاتقان للسيوطي » .

وذكر ابو بكر الواسطي : ان في القرآن خمسين لهجة « الاتقان للسيوطي » .

وذهب ابن عبد البر المتوفى سنة 463 هـ الى ان في بعض مواضع من القرآن ما يعارض ما نعرفه من لهجة قريش ومن جملتها الهمزة « الاتقان » .

وذكر ابن النقيب ان القرآن الكريم تضمن مفردات من جميع لهجات القبائل وكذلك مفردات من الاغريقية والفارسية والحبشية « الاتقان للسيوطي »

وجاء ايضا ان الخليفة عثمان بن عفان كان يفضل ان يكون المولى من هذيل والكاتب من ثقيف وورد انه قال : اجعلوا المولى من هذيل والكاتب من ثقيف .

وجاء ان الخليفة عمر قال : لا يملين في مصاحفنا الاغلمان قريش وثقيف .

وقال الصحابي : قال ابو عبيدة واحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا افصح العرب بيد اني من قريش واني نشأت في بني سعد بن بكر وكان مسترضعا فيهم وهم الذين قال فيهم ابو عمرو بن العلاء افصح العرب عليا هوزان وسفلى تميم .

وفي كل هذا دليل على ان الفصاحة والعربية لم تكن خاصة في قريش والقرآن الكريم لم يكن بعرييتها حسب (17) .

قال الدكتور جواد علي : ان لسيادة لهجة ما من بين لهجات عديدة ، شروطا منها : نبوغ شاعر او شعراء او كاتب او كتاب في تلك اللهجة ، غاية في البلاغة والفصاحة والصناعة فتنتشر آثارهم بين الناس .

ويحاكيهم غيرهم في ذلك ، ويكون ذلك سببا في انتشار اللهجة وتفوقها كما حدث عند اليونان في الشعر القصصي الذي بلغ كماله في الياذة «هوميروس» المنظومة بلغة اليونانيين في القرن التاسع قبل الميلاد ، وفي الشعر الفني المنظوم بلغة الايوليين احدي اللهجات اليونانية وذلك لسبق الايوليين غيرهم بهذا الفن ، فلم يقل بعدهم سائر اليونان هذا النوع من القريض الا بهذه اللهجة . وكالذي حدث ايضا في الشعر الخورسي المنظوم باللهجة الدورية عند عموم اليونان . ومن اسباب تفوق لهجة على اخرى سيقها في مضمار التأليف او اتخاذها لغة رسمية في دوائر حكومة قوية لها كيان وسلطان او جعلها لغة دينية او تأليف الكتب الدينية بها كما حدث في الالمانية حيث صارت اللهجة التي ترجم بها «مارتن لوتر» الكتاب المقدس في القرن السادس عشر ، لغة الادب نظرا لمحاكاة الشعراء والادباء اياه في استعمالها للتعبير عن آرائهم ، او السيادة السياسية والاقتصادية وامثال ذلك من عوامل بسطها العلماء المتبحرون في اللغات ولم يرد في كل الروايات ان قريشا كانت تمتلك هذه الاسباب ليجوز لنا القول ان لغتها كانت لغة الادب والشعر في جزيرة العرب قبل الاسلام (18) .

وانني ارى ان لغة قريش لها من المقومات ما جعلها تصهر في بوتقتها اللهجات الاخرى وتتفاعل معها تفاعلا ادى في النهاية الى تفوقها وجمعها شمل لهجات العرب في لغة عربية اصيلة .

والعرب امة ككل الامم الموجودة الآن يرجع نسبها الاعلى الى نبي الله نوح عليه السلام لانه كما يسميه العلماء آدم الصغير ، وجاء ذلك في القرآن صريحا في قوله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » (19) .

ويقسم النسابون : العرب قديما الى ثلاث طوائف :

الاولى : عرب بائدة وهم عاد الاولى وثمود وطسم وجديس وجهرم الاولى وهؤلاء بادوا ، وانقطعت اخبارهم الا قليلا .

الثانية : عرب عاربة ومنهم سبا وقحطان وجهرم الثانية .

الثالثة : عرب مستعربة ، وهم اولاد اسماعيل ابن خليل الله ابراهيم عليهما السلام وامهم من جرهم حيث جاور قومها اسماعيل وهو في مهده وراوا الماء

« زمزم » ينفجر حولها فاقاموا بجوارها وكانوا اول من كونوا بلدا عرف من بعد باسم « مكة » ومن ولد اسماعيل هذا كانت القبائل العدنانية التي منها خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، وكانت مساكنهم مكة وما حولها من الحجاز وتهامة . ومن عدنان هذا حفظت العرب العدنانية انسابها ويقال لبطن هذا الشعب العدنانية النزارية .

وتشعبت عدنان هذه الى قبائل اشهرها قريش ويسمى « فورا » . وهو الجد الحادي عشر للنبي عليه الصلاة والسلام ، واصل معنى الفهر «الحجر الصلب» .

وانقسمت قريش الى بطون منها بنو هاشم اسرة النبي ، ومنها بنو مخزوم الذين منهم الوليد بن المغيرة ، ومنها تميم ومن تميم ابو بكر الصديق ، ومنها عدي ، ومن عدي عمر بن الخطاب ، ومنها أمية ، ومنهم ابو سفيان بن حرب والد معاوية ، وكان لبطن قريش الشرف في الجاهلية والاسلام عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قريش الجؤجؤ والعرب الجناحان ، والجؤجؤ لا ينهض الا بجناحين (20)

وكان سبب اعتزاز قريش بنفسها ما هياه الله لها من اسكانها بجوار بيته حتى كانت تسميهم العرب جيران الله وآل الله ، وفي ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلوات الله عليه وسلامه :

نحن آل الله في ذمتـه
لم نزل فيها على عهد القدم

ان البيت لربا مانعا
من يرد فيه باثم يخترم

لم نزل لله فينا حرمة
يدفع الله بها عنا النقم

وكان من تدبير الحكمة الالهية لرفع ذكر هذه الامة : ان الهم احد زعمائها وهو قص بن كلاب من اولاد فهر « قريش » عندما رأى ان كثيرا من بطون قريش تفرقت ورأى المرعى والماء الكثير حتى وصل بعضهم بلاد البحرين رأى عند ذلك بالهام ان يجمعهم حول هذا البيت العتيق الذي كرمه الله واكرم من يجاوره . وكان من نتيجة ذلك انه سبحانه سخر بيوتا منها لعمارة بيته ولسقاية حجاجه وهم بنو هاشم ، ومنها من جعله الله مرجع العرب في الراي والمشورة ومنهم من امتاز في الحروب وكانت له الراية فيها . ومنهم من كانت له الرفادة وهي ما كانت تخرجه من

أموالها وتعطي منه من انقطعت به الطريق من الحجاج ، ومنهم من كانت سدانة الكعبة في بيته أي خدمتها وحفظ مفاتيحها ، ومنهم من كان عليه دفع الديبات والمغارم عن المحتاجين كبيت أبي بكر الصديق .

ومنهم من كان مختصا بالسفارة بين قريش وغيرها إذا وقعت حروب أو نزلت نوازل وهم بيت عمر ابن الخطاب .

ولما جاء الاسلام ، أقر كل ذلك لانه من مكارم الاخلاق ، ومن أعظم أسباب احترام عرب الجزيرة وما حولها لهم أن الله هيا لهم سكنا جوار البيت العتيق ، وضمن لهم امنهم وقوتهم ، وجعل من دخله كان في حرام الله وأمانه حتى أن الرجل منهم يلقي قاتل أبيه أو أخيه أو ابنه فلا يمس به بسوء ما دام في حرم الله ، أقرأ ذلك فيما حكاه الله سبحانه عن أبيهم إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : « واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات » الى أن قال : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » (21)

وكان لقريش رحلتان هامتان لجلب ما يحتاجون وتصريف ما يستفتون عنه من انعامهم ومنتجاتها : رحلة في الشتاء الى جنوب الجزيرة ورحلة في الصيف الى الشام وهم في كلتا الرحلتين آمنون مطمئنون لانهم جيران الله ، قال الله سبحانه وتعالى : « لا يلاف قريش إلا أنهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (22)

وقال تعالى ممتنا عليهم بذلك « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجي اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون » . (23)

وقال تعالى مشيرا الى أن هذه الميزة خصهم بها دون من حولهم من العرب : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » . (24)

وكانت قريش تنتهز فرصة اجتماع القبائل العربية الكثيرة في مكة وذلك في موسم الحج وقيمون أسواقا يقصدون بها أغراضا شتى منها التجارة ومنها أن تفخر كل قبيلة بمن ينبع فيها من شاعر أو خطيب . حتى كانت القبيلة التي ينبع فيها شاعر وخطيب تقيم الأفراح الليالي والشهور لانه رفع ذكرها ، وسجل تاريخها بين العرب . وكان من نتيجة ذلك أن اللغة

العربية القرشية اتسعت أساليبها وغزرت مفرداتها ، وتنوعت مواردها وتوفرت لها أسباب النمو من المجازات المختلفة التي تساند الحقيقة في تأدية المراد .

قال علماء الادب : رأت قريش أن تحمل العرب على توحيد أساليبهم وأن تكون لغة قريش هي السائدة ولم تزل تهذب فيها وتسيرها في الألفاظ على السنة الشعراء والخطباء حتى عرفها من لم يكن قريشا فوصلت قريش بذلك ذروة النفوذ الادبي والسيادة على جمهرة القبائل العربية وصارت لغتها ممتازة بصفاء التركيب وعذوبة اللفظ مما جعل العرب يقبلون على محاكاتها حتى انتهى الأمر الى ذلك الإصلاح القرشي بظهور الأسواق الادبية التي كان لقريش فيها الفضل الأول فكان العرب يحاكون أساليبها ويتأثرون لعذوبة ألفاظها فيما يقولون شعرا ونثرا .

وكان العرب يأتون لهذه الأماكن من كل فج عميق ليؤدوا مناسك الحج ويتجروا بأسواقهم ، وكان المعروف من هذه الأسواق عندهم : ثلاثة أسواق : سوق عكاظ وهي موضع قريب من الطائف ، وكانت تقوم من أول ذي القعدة الى عشرين يوما منه ثم ينتقل العرب منها الى سوق « مجنة » بكسر الميم ، وفتح الجيم وتشديد النون المفتوحة وهي موضع قرب مكة يمر الظهران ثم منها الى سوق ذي المجاز وهي سوق على بعد نحو خمسة كيلومترات من عرفة ويمكنون بها الى أيام الحج .

يقضون في هذه الاجتماعات نحو شهرين يتعارفون فيها ويتناشدون الأشعار والخطب وكانت اللغة السائدة في هذه المجمع هي لغة قريش (25) .

ومن الواضح أنه لم يكن المتكلمون بالعربية طائفة واحدة رغم انتسابهم الى العرب ولكنهم كانوا قبائل متفرقة في أنحاء الجزيرة ، وقد اضطرت هذه القبائل الى الاتصال ببعضها لتبادل المنافع من تجارة وغيرها ، فاجتمعت في الأسواق واتصلت عند شئ الغارات والحروب . وهذه الاتصالات أوجدت سبيلا للتصارع بين اللهجات فباد الضعيف وازداد القوي قوة وما زالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية التفوق والتغلب لأسباب ، عديدة :

(1) النفوذ الديني : فقد كان لقريش مكانة دينية ممتازة لقيامهم بسدانة البيت الحرام الذي يفدون اليه لتقديم قربانهم ، وتقديس آلهتهم وشهود منافع لهم فكانوا لذلك موضع تقديس العرب جميعا .

(2) النفوذ التجاري : وقد كان للقرشيين سلطان اقتصادي كبير ، فقد كان زمام التجارة بأيديهم فيجلبون البضائع من الشام صيفا ومن اليمن شتاء ويوزعونها على القبائل العربية فأصبحوا قبلة الأنظار العربية .

(3) النفوذ السياسي : وقد تهيأ لقريش مكانة سامية بفضل ما أوتوا من نفوذ ديني واقتصادي وما حبوا به من حضارة ومجد فأصبح لهم نفوذ عند العرب جميعا ، ويرشدنا الى ذلك ما قاله أبو بكر الصديق في رده على الانصار الذين طمعوا في الخلافة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش فلا تنفوسوا على اخوانكم » .

(4) النفوذ اللغوي : ان القرشيين لم يقفوا حجر عثرة في سبيل تقدم لغتهم بل عملوا على نموها ، فأضافوا اليها ما هي في ميسر الحاجة اليه وما رواه اخف على اسماعهم وأيسر على السنتهم . فهذه العوامل قد هيأت للقرشية سبيل النجاح ومكنتها من ان تصبح اللغة العربية السائدة ذات الاصاله والمعق . فانت ترى ان قريشا أفردت بعلو الكلمة وسمة الزعامة وسعة الجاه ووفرة السلطان وتمام النفوذ الروحي والاقتصادي بين العرب لما تواتي لهم من ثقافة وخبرة وحكمة .

والذي ورث من لغة الحميريين ليس كثير التمييز عن لغة قريش سواء في التصريف ام في الاعراب ام في الأسلوب . بل ان اكثره ظاهر في اختلاف بعض الالفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المتحدة ، فللفظ « انطى » في لهجة الحميريين معناه « اعطى » عند قريش والكتع عند الأولين هو الذنب عند الآخرين ، والشنائر عند حمير ، هي الاصابع عند قريش ، وسامدون في لغة حمير هي الفناء في لهجة قريش الى غير ذلك مما تجد له نظيرا في لهجات مضر كالسدة فهي الظلمة عند تميم والضوء في لغة قريش (26) .

ولما كان الخلاف بين الحميرية والقرشية غير متشعب ذابت لغة الحميريين كسائر اللغات الأخرى في لغة قريش التي صارت ذات غلبة وسيادة على سائر اللغات ، وقد استفادت القرشية من صراعتها مع اللهجات الأخرى أمورا كثيرة أهمها :

(1) استفادات كثيرا من المفردات والاساليب ولا سيما التي كانت تنقصها فتتوالت فنون القول وتمكنت

من التعبير عن جميع الاغراض ، وقد غنيت بالمتراشف والمشتراك والمتضاد وغيرها من الأمور التي كانت كبيرة الأثر في نمو اللغة وسعتها

(2) صيرورتها اللغة القومية للعرب جميعا ، لان اللغات او اللهجات اذا تصارعت وكتب لاحداها الفوز اتجه الجميع الى التكلم بها ولذلك صارت القرشية لغة الشعراء في اشعارهم والخطباء في خطبهم ، ويؤكد ذلك ان العرب على اختلاف قبائلهم ورد اليها شعرهم بلغة موحدة الا في القليل النادر وهو الذي كان عليه الاعتماد في تعرف البقية من لهجاتهم (27) .

وانت ترى بعد هذا ، ان احتكاك اللهجات العربية أدى في نهاية الامر الى تزعم القرشية وصرمها جميع اللهجات الا انه قد بقي لكل قبيل بعض الالفاظ التي كانوا يستعملونها في مخاطبتهم وفي النادر من اشعارهم ، والذي يرشدنا الى هذه البقية من اللهجات مصدران :

المصدر الاول : القراءات التي رويت في القرآن الكريم عن ائمة القراء الموثوق بهم والذين نقلت اليها قراءاتهم من طرق لا يتسرب الشك اليها ، وقد روى عن ابي بن كعب رضى الله عنه قال : دخلت المسجد اصلي فدخل رجل فافتتح النحل فقرأ فخالفني في القراءة ، فلما انفتل من صلاته قلت : من اقراك ؟ قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم جاء رجل فقام يصلي فقرأ فخالفني وخالف صاحبي ، فلما انفتل ، قلت من اقراك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كان في الجاهلية ، فأخذت بأيديهما وانطلقت بهما الى النبي فقلت : استقرئ هذين فاستقرا احدهما : وقال احسنت ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كنت عليه في الجاهلية . ثم استقرا الآخر وقال احسنت فدخل صدري من الشك والتكذيب اشد مما كنت عليه في الجاهلية .

فضرب رسول الله صدري بيده وقال اعيذك بالله يا ابي من الشك ثم قال : ان جبريل عليه السلام اتاني فقال : ان ربك عز وجل يأمرك ان تقرأ القرآن على حرف واحد فقلت اللهم خفف عن امتي . فقال : ان ربك عز وجل يأمرك ان تقرأ القرآن على حرفين فقلت : اللهم خفف عن امتي ، ثم عاد وقال : ان ربك عز وجل يأمرك ان تقرأ القرآن على سبعة احرف .

فهذا الحديث صحيح في اجازة النبي القراءات التي هي مصدر لاختلاف اللهجات .

والمصدر الثاني : ما رواه الثقة في كتب النحو والادب واللغة والتاريخ من آثار لتلك اللهجات ومما يذكر استطرادا : أن الخلاف بين اللهجات متعدد النواحي متشعب الجهات ، فتارة يكون الخلاف ناشئا عن اختلاف الحروف وتارة أخرى يكون عن تباین الحركات . وثالثة من اختلاف حركات الاعراب والبناء وآونة يتعلق بهيئة النطق .

وبالنظر الى ما وصلنا من لهجات العرب يمكننا ان نحصر مظاهر اختلافها فيما يلي :

(1) الابدال : ويشمل ابدال الحروف من الحروف والحركات من الحركات .

(2) التصحيح والاعلال .

(3) الاختلاف في الاعراب .

(4) التردد بين الاعراب والبناء .

(5) الزيادة والنقصان .

(6) الفك والادغام .

(7) هيئة انطق : وهي تشمل : الامالة والترقيق والتفخيم والاختفاء والاظهار .

(8) تقديم بعض حروف الكلمة على بعض وهو : القلب المكاني .

(9) دلالة اللفظ على معنيين فكثر وهو المشترك والمتضاد .

(10) دلالة عدة الفاظ على معنى واحد وهو المترادف (28)

وأما المستشرقون فأراؤهم في اللغة الفصحى مختلفة كذلك . يرى « نولدكه » أن الفروق بين اللهجات في الاقسام الرئيسية من جزيرة العرب - مثل الحجاز ونجد ومناطق البادية المتاخمة للفرات - لم تكن كبيرة ، وأن اللهجة الفصحى مبنية على جميع هذه اللهجات .

ويرى غويدي : أن اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها ولكنها ليست لهجة معينة لقبيلة معينة .

أما المستشرق « نلينو » فيرى أن اللغة الفصحى وهي لغة اشعر الجاهلي هي لغة القبائل التي

اشتهرت بالبراعة في نظم القصيد والتي تردد اليها النحاة وعلماء اللغة في الاسلام ليتعلموا من أهلها صحة النطق بالحروف أو المعاني الغريبة والشواهد لقواعد النحو وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها قبل منتصف القرن الخامس للميلاد ، ويرى أن هذه اللهجة تولدت من إحدى اللهجات النجدية وتهذيب في مملكة « كندة » وفي أيامها فصارت اللغة الادبية السائدة بين العرب .

ويرى فيشر Fischer أن العربية الفصحى هي لهجة معينة ولكن فيشر لم يعين هذه اللهجة . أما رأي هارتمن Hartmann وفولرس Vollers فخلاصته : أن العربية الفصحى هي لهجة اعراب نجد واليمامة ، غير أن الشعراء ادخلوا عليها تغييرات عديدة ، أما الاجزاء الباقية من الجزيرة فكانت تتكلم بلهجات أخرى .

ومن رأي بروكلمان Brockelman وويتزشتاين Wetzstein وآخرين : أن اللهجة العربية الفصحى لم يتكلم بها على الشكل الذي نعرفه ولم يشرح « بروكلمان » علاقة هذه اللهجة ببقية اللهجات .

ويرى « لندبرج » Landburg أن قواعد هذه اللهجة انما هي من وضع الشعراء فمن شعرهم استخرجت القواعد ومن قصائدهم استنبطت (29) .

هذا مجمل آراء كوكبة من كواكب العلم والاستشراق والدراسات الواسعة في المقارنة والعمق والأصالة الجاهدة . ومع أنها آراء تبدو مختلفة إلا أنها في جملتها ومضمونها العام تعطي صورة صادقة لفصاحة القبائل العربية المنتشرة في طول الجزيرة العربية وعرضها .

ومما يرجى ذكره : أن العلماء لم يتفقوا على أول ناطق « لاهج » بالعربية ، فافترق الباحثون حسب ما بدا لهم من أدلة أساسها الحدس والتخمين .

فيرى فريق من باحثي اللغات : أن العربية نشأت على يد القبائل البائدة التي لم يشملها الفناء والهلاك كطسم وجديس ويستند أصحاب هذه الفكرة الى التوافق بين النقوش المعثور عليها والاصوات التي امتازت بها السامية كالضاد والعين .

ويتجه آخرون : الى أن يعرب بن قحطان هو أول متكلم بالعربية ويؤيدهم كثيرون من العلماء محتجين

بأن العرب البائدة قد ذهبت أدراج الرياح فليس لها اثر محقق سوى المروي من قصصها في الكتب السماوية والمنقوش على الآثار المعثور عليها . وهذا الراي منسوب الى اليعانيين الذين يرون انهم اصل العرب .

ويتجه جماعة : الى ان اسماعيل هو اول متكلم بالعربية مستدلين بما ورد في الاثر من ان اول من فتق لسانه بالعربية اسماعيل .

وجاء في المزهر : ان اول من تكلم بالعربية ونسي لسان ابيه اسماعيل عليه السلام (30) . ويرى بعض العلماء : ان العربية هي لغة العرب العاربة ومنها انتقلت الى القحطانيين فالعدنانيين ، وقال فريق : ان لسان جميع من كان في سفينة « نوح » هو السريانية الا واحدا منهم هو « جرههم » فكان لسانه لسان العرب الاول . فلما خرجوا من السفينة تزوج ارم بن سام بعض بناته فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوض ابي عاد وعييل وجائر ابي ثمود وجديس .

تلك آراء العلماء وقد عززت بالادلة التي وضحت لاصحابها .

ومن النظر البين فيها تتجه النفس الى ان العربية اخذت من بقايا القبائل البائدة فليس هلاكها مؤثرا في لغتها فهناك قبائل بقيت كطسم وجديس .

ولانه من غير المقبول ان يكون « يعرب » اول لاهج بها . لانه وفد من العراق متكلم بلغته التي تفاهم بها في وطنه الذي ارتحل عنه وهي غير عربية قطعا ، فترك يعرب للغة التي تعودها منذ نعومة اظفاره ليتكلم بلسان جديد هو العربية مناف للمألوف ومخالف للمعروف .

كذلك لا يمكن القول بأن اسماعيل العبري اول لاهج بها . بناء على اثر نبوي فالظن في هذا الحديث بناء على حال اسماعيل قوي ولكننا نقبله ونفسره بما يسائر الواقع ويتفق مع الحاصل وهو ان اسماعيل اول ناطق بالعربية من العدنانيين بعد ان تعلمها من مخالطة الجراهمة التي هي فرع قحطاني عند نزوله مع امه ببطن مكة سنة الف وسبعمائة قبل الميلاد . وعلى ذلك فلا تنافي بين الاثر والواقع .

والقحطانيون وقد تلقوا لغتهم من بقايا العرب البائدة لم يكن لهم لسان موحد في شتى المصور لان العوامل اللغوية فعلت فعلها فكانت اللهجات المختلفة .

اللهجة الميعينية : وهي منسوبة الى الميعنيين الذين اسسوا اقدم مملكة في بلاد اليمن وقد اتخذوا « قرنا » عاصمة لهم وذلك في القرن الثامن قبل الميلاد غالبا .

اللهجة السبئية : وتنسب الى السبئيين الذين قامت دولتهم القوية على انقراض الدولة الميعينة واتخذوا « مارب » عاصمة لهم .

اللهجة الحميرية : وهي منسوبة الى الحميريين الذين نازعوا السبئيين الحكم امدا طويلا .

اللهجة القتبائية : وتنسب الى قبائل قتيان التي انشأت مملكتها في المنطقة الساحلية شمال عدن .

اللهجة الحضرمية : وهي منسوبة الى قبائل حضرموت وقد انشأت مملكة قوية نازعت سبأ السلطان .

فالقحطانيون تلقوا هذه اللغة عن بقايا القبائل العربية البائدة وقد توسعوا فيها حسب مطالب الحياة واخذها العدنانيون عنهم لجوارهم لفرع قحطاني وهو « جرههم » (31) .

فالعربية عريقة في القدم - ممتدة في جذور التاريخ العميق . ولها تاريخ ممتد في الزمن الماضي وان التاريخ الطويل للغة يعطيها فاعلية اكثر وتبلورا وتناسقا مع مقتضيات كل زمان .

وللعربية مصادر اصيلة وركائز اساسية اعتمدت عليها في تفاعلها مع الزمن وهذه المصادر يمكن ان نستقيها من : القرآن الكريم والشعر والامثال والقصص .

اما القرآن : ففضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا في التفكير العربي في جميع مناحي الحياة ، فقد كان مصدرا عظيما للغة التي اغناها بمصطلحات كثيرة او بأسلوب جديد ، وكثير من هذه المصطلحات او الاساليب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين والمقائيد والمبادئ والمعاملات .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقدم هذا الاسلوب المنزل في صورة وحي كاخبار او جواب عن اسئلة يثيرها العرب « يسألونك عن الاهلة - يسألونك عن الشهر الحرام - ويسألونك ماذا ينفقون - يسألون عن النبا العظيم » الخ .

والحديث الشريف لم يخط بمثل هذه الخطوة ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا او ضمنا في احاديث النبي حتى قيل انها لم تسمع عن غيره من قبل ومنها: « مات حتف أنفه - الحرب خدعة - لا يندغ المؤمن من جحر مرتين » .

واما الشعر: فمصدر بالغ الاهمية للغة حتى قيل: انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وانما ظل الشعر مصدرا للغة لسهولة حفظه وروايته ولانه لا يحتمل المكذوب والمدسوس مثلما يحتمل النثر ، واذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الادباء عمدوا الى جمع كثير منه كتابة في وقت متأخر نسبيا كابي تمام في كتاب « الحماسة » وابو فرج الاصبهاني في كتاب « الأغاني » والذين قصدوا جمع مواد اللغة للتأليف، في هذا الباب عمدوا الى الاستشهاد بالشعر كما فعل النحاة أيضا . وهكذا استشهدوا بالشعر التالي على ان « عزب » تطلق على الذكر والانثى

يا من يدل عزبا على عزب

كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظ التثنية بقول سويد بن كراع :

فان تزجراني يابن عفان انزجر

وان تدعاني احم عرضا ممنعا

وقس على هذه الامثلة وقد كان ابن عباس يقول: اذا قرأتم شيئا من كتاب الله لم تعرفوه فاطلبوه في اشعار العرب لان الشعر ديوان العرب (33) .

قال ابو حاتم الرازي المتوفى في سنة 322 هـ ان اللغة العربية ديوانا ليس لسائر لغات الامم وهو الشعر الذي قد قيدوا به المعاني الغربية والالفاظ الشاردة فاذا اخرجوا الى معرفة حرف مستصعب ولفظ نادر التمسوه في الشعر الذي هو ديوان لهم متفق عليه مرضي بحكمه مجمع على صحة معانيه واحكام اصوله محتج به على ما اختلف فيه من معاني الالفاظ واصول اللغة .

والشعر : هو الكلام الموزون على روي واحد ، المقوم على حلو واحد حتى لا يخالف بعضه بعضا في الوزن والروي وسموه شعرا : لانه الفطنة بالفوامض من الاسباب وسموا الشاعر شاعرا لانه كان يظن لما لا يظن له غيره من معاني الكلام واوزانه وتاليف المعاني واحكامه وتثقيفه ، فكان لا يفوته من هذه الاسباب كلها شيء . قال عنتره :

وفى عهد الرسول لم تثر اسئلة كثيرة لتأويل عدد من نصوص القرآن فكان على الصحاب ان يأخذوا على انفسهم ثقل هذه المسؤولية فلم يقدم على ذلك الا قليل منهم كمكرمة وابن عباس الذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة التي اثارها المستفسرون .

وانثار الخلاف في قراءة القرآن مشكلة ظهور عدة روايات تنوقلت عن جماعة معينة من القراء واحتفت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف يتعلق بالحركات لا بجوهر اللفظ نفسه . ومهما يكن من شيء فان القرآن كان مرجعا اساسيا لرواة اللغة الذين اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج وقد حفظ عدد من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الاسلوب العربي مثل : « ان هذان لساحران » قال رب ارجعون » « والارض فرشناها - فقد صفت قلوبكما » وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد بها للتدليل على صحة ما يقابلها من غير القرآن . قال المستشرق بروكلمان Brockelmann بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه اى لغة اخرى من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعا مؤمنون بان العربية هي وحدها اللسان الذي احل لهم ان يستعملوه في صلاتهم . وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع اللغات الاخرى التي تنطق بها شعوب اسلامية .

وقال الدكتور ستينجاس : ولنسائل انفسنا ماذا كان مصير هذه اللغة العربية ولو لم يكن محمدا ولو لم يكن القرآن ؟ ونحن لا ننكر ان اللغة العربية انتجت قبل الاسلام الوانا عديدة من الشعر هي غايبة في الحسن والركة الا انها كانت كلها محفوظة في اذهان الناس وغير مكتوبة ، زد على ذلك ان الشعر العربي ليس هو الادب كله .

وقال الدكتور « جورج سارطون George Sarton » وهب الله اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على ان تدون الوحي الالهي احسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغاته ، وان تعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة . وهكذا يسعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الاعلى في التعبير عن المقاصد . الا ان هذا كله لم يمنع من نشوء لهجات متعددة للتخاطب العادي وخصوصا حينما اصبح ابناء الامم المختلفة يتكلمون العربية ولكن القرآن الكريم جعل من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن اسى مقتضيات الحياة (32) .

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

بمعنى أن الشعراء لم يدعوا شيئا إلا وفطنوا له
يقال شعرت بالشيء إذا فطنت له ، قال الكسائي في
قوله تعالى « ولكن لا تشعرون » شعرت بالشيء شعرا
وشعورا وبعضهم يقول مشعورة ، وقال أبو سعيدة :
هو شعره فحذفوا الهاء قال : وهو مثل الدرية والفطنة
وهو على وزن « فعلة » قال : وقيل شاعر لأنه يشعر
بالشيء ويفطن له ، قال : ومنه قولهم ليت شعري أي
ليتني أشعر به .

وسموا الكلمات المنظومة المؤلف بعضها الى
بعض « قافية وجمعها » « قواف » قال النابغة :

قواف كالسلام اذا استمرت

فليس يرد مذهبها التظنسي

يعنون بالقوافي الكلام الذي يقفو بعضه بعضا على
مثال واحد ثم سموا اجتماع القوافي قصيدة .
قال جرير :

في ليلتين اذا حدوث قصيدة

بلغت عمان وطىء الاجيال

يعني بالقصيدة : الكلمة التي ملئت بالمعاني
وكثر فيها الالفاظ المستحسنة يقال ناقة قصيدة أي
ممثلة كثيرة اللحم سمينة فكانهم شبهوا القصيدة
بذلك ، قال الشاعر :

قطعت وصاحبي سرح كناز

كركن الرعن ذعلبة قصيد (34)

فالعرب تكلموا بالشعر الرصين المحكم المعاني
الموزون بالمعروض المقوم بالانحاء من غير أن يعرفوا
عروضا أو نحوا وأبرزوه في الالفاظ حسنة ومعان متقنة
وقواف موزونة ومصاريع مستوية فرواه أهل اللب
والادب منهم وقبل أهل الشرف والحسب عنهم
وجعلوا رويه في ذكر الاحساب والمآثر ومدح الملوك
والاكابر والنبلاء من الناس ، وفي ذكر المثالب والسباب
وهجاء أهل الضغائن والاحقاد ، وفي ذكر الوقائع
والحروب ونشر كل شاعر محاسن أيام قبيلته
ومفاخرها ومساوىء أهل الشنان والبغضاء واستفتحوا
كلامهم بذكر النسيب وبسطوه بصفات الديار والقفار
والنجم والإمطار ، ونعت الخيل والابل والوحش وغير
ذلك مما يطول الشرح به ، ويكثر الكلام بذكر علله
فتقيدت به الالفاظ الغريبة والمعاني اللطيفة وحفظ

الرواة عنهم كثيرا من ذلك الشعر ودونوه ورواه السلف
للخلف وعرفوا به اختلاف لغات القبائل (35) .

واما الأمثال : فتعد أيضا من المصادر الاصيله
لغة العربية حيث انها ذات أهمية بالغة من حيث
ارتباطها اجتماعيا وادبيا بحياة العرب . وهي من آداب
العرب الهامة ، لأنها تجري على سنتهم مجرى الشعر
وهي عظات بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقل
الراجح .

قال أبو عبيد : الامثال من حكمة العرب في
الجاهلية والاسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها
ما حاولت من حاجاتها في النطق بكتابة غير تصريح
فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال ايجاز اللفظ واصابة
المعنى وحسن التشبيه (36) .

والعرب تضمن اشعارها واقوالها الامثال والحكم
فتزينها كقول ابي ذؤيب من قصيدة :

فلا تك كالثور الذي به دفنت

حديدة حنف ثم امسى يثيرها (37)

وبعضهم نظم القصائد كلها من الامثال كارجوزة
أبي العتاهية التي سماها ذات الامثال (38) ولا تخلو امة
من الامثال المتوارثة في الاعقاب . لكن العرب يمتازون
بامثالهم المبنية على الحوادث لان الامثال عندهم
نوعان :

1 - امثال حكيمية كقولهم : الجار قبل الدار ،
والحرب خدعة ، والخطا زاد العجول ، والعتاب قبل
العقاب ، ونحوها مما يتناقله الناس في الاعقاب
وترويتها الامم بعضها عن بعض ، واقدم مجموع لها
امثال سليمان واكثر الامم اخذت عنها .

2 - الامثال المبنية على الحوادث وهي خاصة
بهم لان الحوادث جرت لهم كقولهم : « وافق شن
طبقة » و « قطعت جهيزة قول كل خطيب » و
« الصيف ضيقت اللبن » و « سبق السيف العذل » وهم
يؤثرون تلك الامثال عن قائلها وقد يروون عشرات من
الامثال قالها الواحد في حادثة واحدة كما رووا في
حادثة الزباء وقصير وجذيمة الأبرش (39) فذكروا في
اثناء هذه الحادثة عشرات من الاقوال ذهبت مثلا منها
قول قصير « رأى فائر وعدو حاضر » وقوله « رايك
في الكن لا في الضح » وما ضل من تجري به العصا
وقول الزباء « لامر ما جدع قصير انه » وبيدي لا بيد
عمرو » ونحو ذلك ، وهذه الامثال واشباهها كثيرة في
اقوال الجاهلية .

وقد عني العرب بجمع الأمثال لأنها من جملة ما احتاجوا إليه في تحقيق الفاظ اللغة ، ذكر ابن النديم أن عبيد بن شربة من أهل اليمن ألف كتابا في الأمثال في خمسين ورقة بأواخر القرن الأول الهجري وهو أول من فعل ذلك وقد ضاع هذا الكتاب .

واشتغل كثيرون من أدباء البصرة والكوفة في إبان التمدن الإسلامي بجمع أمثال العرب منهم صحر العبدى كان معاصرا لابن شربة ويونس النحوي المتوفى سنة 182 هـ وأبو عبيدة سنة 211 هـ وثلعب سنة 291 هـ وأبو عبيد القاسم بن سلام سنة 223 هـ والمفضل النضبي وأبو هلال العسكري ومحمد بن زياد الأعرابي ومحمد بن حبيب البغدادي وحزمة الأصفهاني وغيرهم .

وقد شرح هذه الكتب كثيرون وأضافوا إليها من الأمثال الحادثة في الإسلام ، وأهم هذه الكتب الباقية إلى الآن كتاب « المستقصى » للزمخشري « توفى سنة 538 هـ » ومجمع الأمثال للميداني « توفى سنة 518 هـ » وفي مجمع الأمثال نخبة مما احتوته كتب المتقدمين جمعه مؤلفه من نحو خمسين كتابا في الأمثال ورتبه على حروف المعجم بعد أن أضاف إليه أمثال المولدين . وهو أجمع كتاب في الأمثال العربية وفيه شروح لطيفة وقد طبع مرارا في مصر وغيرها ، أما المستقصى للزمخشري فمنه نسخ خطية في مكتبة ليدن وفيينا والمتحف البريطاني وكوبرلي بالإستانة ودار الكتب المصرية .

أما كتب الأمثال الأصلية التي أخذ عنها الميداني والزمخشري فالباقى منها قليل : أهمها كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام طبع في غوتنجن سنة 1836 وأمثال العرب للنضبي طبع في الإستانة سنة 1300 هـ وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري طبعت في الهند سنة 1307 هـ وأمثال لقمان طبعت مرارا في أوربا ومصر ومنها طبعة في باريس سنة 1847 مع ترجمة فرنسية ، وتجد كثيرا من أمثال العرب في كتاب الإمالي لأبي علي القالي ، وكتب اللغة وكتب الأدب ونحوها (40) .

وأما القصص : فوراء كل مثل قصة حفظت كتب الأمثال السابق ذكرها كثيرا منها وخصوصا مجمع الأمثال للميداني 518 هـ والقصص تمثل بدورها نماذج

صادقة من تفكير العرب وآدابهم وأهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ وجمال الأسلوب وأحسن مرجع لها هو كتاب « الإمالي لأبي علي القالي وكتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني وكتاب البيان والتبيين للجاحظ » .

وخلاصة القول : أن القرآن الكريم والشعر والأمثال والقصص قد أدت دورا بارزا في حفظ اللغة العربية وتقويمها . إلا أن جميع الدراسات اللغوية أثبتت في قوة أن سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها ، هو القرآن الكريم قبل غيره وذلك أن الفاظا كثيرة يرددها القرآن كانت ماثرة أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول ، وكان بين هذه الألفاظ ما هو غير عربي ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه قبل الإقدام على التأويل الشرعي فنشأ عن ذلك العناية بتفسير القرآن الكريم .

واختلفت الروايات في قراءة القرآن . فنشأ عن ذلك علم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو . وأخيرا فإن وضع قواعد النحو كان ضروريا لحفظ آيات القرآن على صورتها الأصلية بقطع النظر عن تعدد القراءات ولحسن الحظ ، فقد كان العرب يفتنون إلى ضرورة تدوين أكثر ما يمكن من الأشياء التي يخشون ضياعها بسرعة كما فعلوا في تدوين المصحف مثلا فقد بدأوا في ذلك منذ عهد أبي بكر الصديق . وهذا يدل على أن العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة والقراءة . بل يمكن أن يفهم من تعليم أسرى مكة لصبيان المدينة أثر وقعة بدر الكبرى أن الكتابة والقراءة كانتا تنتشران بمكة التي عرفتها قبل المدينة ومن ثم فتدوين العلوم المتصلة بالقرآن قد سبق تدوين غيرها من العلوم .

وبالرغم من أن الكتابة كادت تكون مجهولة في باقي أجزاء شبه الجزيرة العربية فإن الألفاظ اللغوية التي حفظتها القوائد تشكل ثروة هائلة ، ولقد كانت لغة الشعراء كما يقول « بروكلمان » أشبه ما تكون بنهر جداوله هي اللهجات للقبائل التي اشتقت من العيين نفسها .

وإذا كان للقرآن الكريم فضل في انتشار العربية بشكل لم تكده تعرفه لغة أخرى في العالم فإن الموارد الأخرى التي استقى منها الرواة ودارسو اللغة الأولون قد أدت بدورها خدمة للعربية لا تنكر .

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال فى تحقيق اللغة وتمييز صحيحها من فاسدها وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيون قد ساهموا بدورهم فى هذا الميدان الا ان مؤلفاتهم على العموم لم يتح لها تأثير كبير من حيث الذبوع والانتشار (41) .

وقد ظلت اللغة العربية على متانتها وقوتها فى عهد الرسول وفى ايام الخلفاء الراشدين وما سجل من الهفوات واللحن على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئاً يذكر بالقياس الى ما ابلفته العربية من فوضى شيئاً يذكر بالقياس الى ما بلفته العربية من فوضى

